

د. ه. لورنس

للأستاذ عبد الحميد حمدي

—

مقدمة

أهل ويأس : في هاتين الكلمتين يتلخص تاريخ القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين . كانت تقوم الحركة نحو الحركة ، وفي كل مرة ينبعث الأمل ويظن الناس أن الحياة قد بعثت من جديد وأنهم صاروا قلب قوسين أو أدنى من السادة الإنسانية ، ولكن سرعان ما تدهوى الحركة وتموت ، فيتحول الأمل يأساً ، وينقلب النسيم بؤساً ، وتحمل الحسرة محل السرور ، ويأخذ الألم مكان اللذة ، وبذلك تقم الحياة وتظلم أكثر من ذي قبل حتى لا تبشر بعد ذلك بخير

ففي مستهل القرن التاسع عشر قامت الحركة الصناعية ، فهلل الناس وكبروا استغافروا كأنهم من كابوس مرعب . ولكن لم تلبث هذه الحركة أن خلفت أضعاف ما كان موجوداً من بؤس وشقاء ، فازدحت المدن حتى ضاقت بسكانها وتوزعت الثروة ولكن توزيعاً غير عادل ؛ فكان من جراء ذلك أن مال الناس عن هذه الحركة وتعلقوا بأهداب حركة أخرى ناشئة هي الحركة العلمية التي قامت نتيجة للمستكشفات العلمية والمخترعات الحديثة ؛ فأمل الناس فيها واستبشروا بها حتى صدمتهم الحقيقة المرة وتبينوا أن العلم قد ينفلي الإنسان قوة فوق قوة ولكنه لا يهبه السادة ولا الهناء

وعلى أثر يأس الناس من هذه الحركة نامروا الحركة السياسية التي قامت تحت زعامة جلاستون أملاً في أن الدعوة إلى الحرية وإنهاء الفوارق بين الطبقات والتخلص من امتيازات الطبقة العليا هي سبيل السعادة المنشودة . ولكن ما كاد عميد الحركة يقضى حتى قضت الحركة إلى جواره ، ثم أتت هزيمة فرنسا في الحرب السببية فكانت ضغناً على إبالة وكانت الضربة القاضية للحركة لأن فرنسا كانت نصيرة الحرية ورمزاً لها في ذلك الوقت وبهذه الطريقة بلى الإنسان باليأس المرة بعد المرة حتى نصب معين أملاً ، وزال عنه تفاؤله ، وصار لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار أسود ، بعد أن تبين له أنه إنما يحارب عدواً لا قبل له به ، وأنه قد كسبت عليه الهزيمة مهما قاتل ومهما استبسل . لذلك رأى

بعد هذا أيضاً يجب ألا يكتفى بتقاليد أمته وجنته ، بل يكون واسع الأفق عالي البعث حتى يصل إلى مبادئ يمكن الحكم بصلاحياتها للجميع . والسياسة بما نهى لنا من فرصة نعرف تقاليد الأمم والشعوب المختلفة الدينية والاجتماعية في مواطنها الخاصة يمكن أن تدنا بهذا البعث الأخلاق الواسع الدقيق بمبادئ أخلاقية عامة لها قيمتها وخطرها . من أجل هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز — بعد ما ساج كثيراً بين أوروبا وأمريكا وأقام أخيراً باليابان — مادنا معاشر الأوربيين لم نعلم إلا في نصف الكرة ، فليس لنا إلا أنصاف أفكار وآراء (١) .

وإذا لكي نصل إلى مبادئ وأحكام صحيحة ، يجب أن نأخذ هذا وذلك ، لا نخص بحثنا بأمة دون أمة ولا بجنس دون جنس ، ولا بعصر دون عصر . يجب أن نجتمع شهادات كل الضمائر التي لها قيمتها ، وأن نبحث لنفهم نفسية الأفاضل والأبطال والحكام . ثم نعمل التحقيق غير التمييز في كل هذا المجموع من الآراء الأخلاقية لنعد بذلك العقيدة الأخلاقية غير المفرضة على طريقة « المروحة » حسب تعبير « روه - Raub » نفسه ، وإذا يكون القانون والشال الأعلى الأخلاق هو نقطة الانتهاء لطرق متعددة متنوعة .

هذه هي الطريقة الحية النتيجة التي أرى أنه باتباعها نصل إلى تقرير حقائق أخلاقية صالحة لكل العقول ، وإلى تعرف الشال الأعلى الأخلاق الذي يقبل من كل الضمائر المستقيمة والإرادات الطيبة في كل أليثات والمصور .

إلى هنا انتهيت مما أردت بحته ، ولم يبق إلا أن أتوجه بالشكر لله تعالى ، وإلى حضرة الأستاذ الجليل صاحب « الرسالة » ، وحضرات القراء الذين تفضلوا بتشجيعي على جهد النقل برسائلهم وكتاباتهم الطيبة . وأخص حضرة الباحث الجليل الأستاذ نصيف المنقبادي الذي لا أجدي أهلاً للثناء الذي وجهه إلى بسند « الرسالة » القراء وتم ٣٠٣ في ابتداء الكلمة القيمة التي بحث فيها غريزة الخير والشر من الناحية البيولوجية أي من ناحية أصلها ونشأتها وتطورها وذلك غير الناحية التي حاولت بحثها .

والى اللقاء بعد العودة من فرنسا إن شاء الله تعالى في أول العام الدراسي الآتي .

محمد يوسف موسى

الدرس بكلية أصول الدين

(١) Chailay : Philosophie scientifique et phil. morale

خال : الطبيعة الطبية والفلسفة الأخلاقية

الكتاب . يبيون عليه لفته وجراثمه في التمييز وهم يملون أنهم يستملون نفس اللغة في أحاديثهم في متحدثهم الخاصة ، ويبيون عليه الموضوعات التي يعالجها وهم لم يخرج عما يفعله الإنسان منذ الخليقة حتى يومنا هذا

ولما كان لورنس مريحاً لا يعرف للندارة معنى فقد حذر الناس من تيار المدنية الحديثة الذي يجرفهم إلى هاوية الدمار وهم لا يشعرون . فهذه المدنية الحديثة وليدة العقل والتفكير قد قامت على حساب كبت التراث الانسانية . فبعد أن كان الإنسان وحدة كاملة بدنه وجسمه انفصل الانثان ، ثم تلب العقل حتى أصبح الجسم مسجوناً لا يستطيع التنفيس عن رغباته ؛ فيرى لورنس من كتاباته أن يفك قيود الجسم ويطلق سراحه كي يستعيد الفرد كليته الأولى . ولما كانت العلاقة الجنسية وتنظيمها هي التي تكفل للإنسان الوصول إلى هذا الغرض فقد اهتم بها لورنس وعالجها في معظم كتبه

ولورنس من ذلك الصنف من الكتاب الذي يخلق في قرائه الذوق الذي يبينهم على فهم كتبه واستساغتها ، وهذا في حد ذاته يحتاج إلى وقت ليس بالقصير . ونلاحظ على كتب لورنس أنها سهلة القراءة صعبة الفهم ، وهذا سر خلودها . فلورنس يستفد أن الكتاب خالد ما دام يسر غوره أحد . وكثيراً ما يقرن اسم لورنس باسم جيمس جويس أو فيرجينيا ولف أو بروس أو غيرهم من رواد المدارس الحديثة في الأدب . والحقيقة أن لورنس يختلف عنهم اختلافاً بيناً ، فكتب هؤلاء صعبة القراءة في أول الأسر سهلة الفهم بعد ذلك ، لأن صعوبة فهمها في لغتها الجديدة وتصيغاتها غير المألوفة في حين أن موضوعاتها لم تخرج عن المطروق المألوف . وأما لورنس فبلى العكس من ذلك ، فهو يكتب في لغة مفهومة مألوفة ، ولكن شخصيات رواياته وحوادثها وموضوعاتها أبعد ما تكون عن المألوف ، وكلها ترمي إلى غرض واحد هو شق طريق جديد في الحياة وكان من يجرؤ على قول الصدق بين قوم ألفوا الكتب وتودوه يحاكم عاكة صورية تنتهي بحرقه أو بزهجه في أعماق السجون . أما في عصرنا هذا عصر المدنية الحديثة والحرية القول ، فتقوم الصحافة مقام محاكم التفتيش القديمة ؛ فإذا لم يعجبها كاتب بأن كان مريحاً أو غليماً فيما يقول قامت تشويه اسمه وتسيء إلى سمته حتى تنفر الناس منه وتبغضه إليهم . وهذا ما فعلته الصحف المفترضة بكاتبنا ، وساعدها على ذلك ميل الناس في عصرنا هذا إلى تصديق كل ما يقال دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة بحث

أن لا مغر له من اجتباب هذه الحياة والابتعاد عنها ، فكانت الفنون خير مكان يلجأ إليه ... فهناك في ديا الخيال يسبح الإنسان في عالم من صنع يده ، عالم هو مبدعه وخالفه ، بعيداً عن صخب الحياة ونحيبها . ولكن ما كاد يزرغ فجر القرن الجديد حتى تبين للناس أن الفنون ما عادت تصلح لأن تكون ملجأ الإنسان إلى الأبد ، وزاد إيمانهم بهذا عند نشوب حرب جنوب أفريقيا واستعداد ألمانيا للحرب بشكل لم يسبق له شيل من قبل . عند ذلك أدرك الناس أن الوقت قد حان كي يتركوا عالم الخيال جانباً ويسودوا إلى الحياة ومواجهتها

وقامت في ذلك الوقت مدارس عديدة تدعو إلى مبادئ متباينة . فقامت مدرسة ريارد كبلنج ، ومدرسة برنارد شو ، و ه . ج . ويلز ، ثم مدرسة ج . ك . تشسترون . وكان هم كل واحدة منها قد مبادئ المدرستين الآخرين ودعوة الناس إلى اعتناق مبادئها هي ، حتى قامت الحرب العظمى التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأفكار والمبادئ التي كانت تسيطر على عقول البشر في ذلك الوقت خاطئة تحتاج إلى التعديل أو التغيير ، وعلى هذا الأساس قامت مدارس أخرى ، وعلى رأس هذه المدارس قامت مدرسة لورنس

وبرغم أن لورنس في نظر بعض ضيق العقول لا يبدو كونه كاتباً مفتحاً أو رساماً لا خلاق له ، إلا أنه يمتزج في رأى أئمة المفكرين نابغة عصره . فقد يد معاصريه الكتاب في عالم الروايات الطويلة والقصص القصيرة والروايات المسرحية ، كما فاق غيره من الرسامين بلوحاته الفنية ، وظهر على الموسيقيين بمقطوعاته التي وضعها بنفسه . وكان يحدوه في ذلك كله أمل واحد وغرض واحد : هو القضاء على هذه الحياة التي غلبها التكلف وساد فيها التصنع حتى سارت حياة ملت وراء ، فكان هم أن يهدم هذه الحياة من أساسها ليقيم على أنقاضها حياة جديدة

ولما كان هذا هو غرضه وجب عليه أن يكون مريحاً إلى أقصى حدود الصراحة ، وأن يتوخى الصدق في كل ما يقوله ، لا يهجم في ذلك نوع الموضوع الذي يعالجه ولا رأى الناس فيما يقوله ، فلا يجد قارئاً يمين أن يكتب في موضوع الملاقة الجنسية وبين أن يكتب في موضوع مناجم الفحم أو ما إلى ذلك من الموضوعات العادية . وهم يبيون على لورنس صراحته وصدقه وأنه لا يحاول أن يمدح نفسه ويمدح الناس كما يفعل غيره من